

السيد أمير علي

أما « السيد أمير علي » فصلاح علي من جنس « السيد أحمد » ، بل ربما كان أكثر منه تقديراً للحياة الواقعية ومواجهتها .

لقد قابل « السيد أحمد » في إنجلترا ، ثم قابله في الهند ، وطالما تجادلا لاختلاف وجهة نظرهما في إصلاح مسلمي الهند ، فالسيد أحمد يرى أن الإصلاح وسيلته التربية والتعليم فقط من غير انغماس في أية ناحية من النواحي السياسية ؛ والسيد أمير علي يرى أن التربية وسيلة صحيحة ، ولكن لابد بجانبها من علاج الشؤون السياسية للمسلمين في الهند ، ووضع خطة لها إزاء خطة الهندوكيين ، وإلا ضاع المسلمون بجانب الهندوكيين ؛ لابد من وضع غرض سياسي وتنظيم خطة وتحديد مطالب ورسم طرق السير . والسيد أحمد يأبى ذلك ويقول لا شيء إلا التربية . ولهذا سار كل منهما على مبدئه ، فالسيد أمير علي يؤسس سنة ١٨٧٨ « الجمعية الوطنية الإسلامية » للدفاع عن حقوق المسلمين وتحديد الوضع السياسي لهم ، ويدعو « السيد أحمد » للعمل معه فيأبى .

وأخيراً جداً وفي آخر حياة « السيد أحمد » يؤمن بصحة نظرية السيد أمير علي ، بفضل حوادث الهندوكيين ، فيؤسس « جمعية الدفاع الإسلامية » . يمتاز « السيد أمير علي » بثقافته الغربية والشرقية الواسعة ، فقد تعلم العربية والفارسية ، ثم اتصل في شبابه بأدباء الإنجليز في الهند ، فدرس الآداب الإنجليزية دراسة عميقة . لقد قرأ يامعان أكثر روايات شكسبير ، والفردوس المفقود للملتن ، وحفظ شيلي ، وقرأ لكينيس ، ويرون ، ومور ، وكل روايات ولتر سكوت ، وكتاب جيبون في أسباب سقوط الدولة الرومانية ، إلى غير ذلك .

هذا إلى دراسته القانونية وحصوله على درجة جامعية فيها من الهند قبل سفره إلى إنجلترا ، ثم ذهابه إلى إنجلترا عضواً بعثة ، وثقافته الواسعة هناك ، ودراسته الأدبية والتاريخية لتغذية نفسه ؛ ثم كان له من بروز شخصيته ، ونبالة نفسه ، واعتداده بأنه شريف النسب تنمى أسرته إلى النبي العربي ، ما جعله يظهر في الأوساط الإنجليزية ، ويؤكد صلات الصداقة بينه وبينهم ، ويتعرف الحياة الاجتماعية الإنجليزية أدق معرفة .

كل هذا مكن له في شق طريقه إلى الإصلاح .

وكان حسن استعداده الأدبي ، ودراسته الآداب الإنجليزية في سعة وعمق ، مما مكن له في السيطرة على أسلوب إنجليزي أدبي ممتاز ، استخدمه في نشر كتبه الإسلامية المملوءة حماسة وغيرة على الإسلام .

ففي أواخر سني دراسته في إنجلترا أصدر كتاباً عن « محمد وتعاليمه » كان له صدى بعيد في الأوساط الأوربية والهندية . وقد قال عنه المشرق أسبورن Osborn : « إن هذا الكتاب يستحق الإعجاب حقاً ؛ وقد كُتب بأسلوب يدل على ملك كاتبه لخاصية اللغة الإنجليزية ، أسلوب قل من يستطيع أن يجاريه من الإنجليز المثقفين ، أسلوب خلا من العيوب التي وقع فيها مثقفو الهند ويجب أن يهنا مسلمو الهند بأن يكون منهم من بلغ هذه الدرجة ، ومن المستحيل على من فاتحة أعماله هذا الكتاب ألا يكون له في مستقبله أثر فعال عميق في قومه . أما موضوع الكتاب فإننا نخالفه في كثير من مسائله . وسنعرض وجهة نظرنا ووجهة خلافنا فيما بعد » .

واستعمل قلعه البليغ هذا في كتابيه الكبيرين « مختصر تاريخ العرب » و « روح الإسلام » ، ففي الأول لخص تاريخ المسلمين ، وعنى بوصف حالتهم الاجتماعية في أسلوب سهل جذاب ؛ وفي الثاني عنى بوصف الدين الإسلامي ،



السيد أمير علي في ثيابه الجامعية

وأبان أن تعاليمه تدعو إلى التطور والرقى المستمر ، ومقدمته من أبدع ما كتب عن الإسلام ، وقد أفرغ فيها — كما قال — قلبه .

ثم كتبه المختصرة في الدعوة إلى الإسلام .

ونشر هذه الكتب بالإنجليزية البايغة كان له أثر كبير لم يُسبق إليه ، وهو تعريف الأوربيين بالإسلام ومحاسنه من مسلم متحمس ، إذ لم يكونوا يسمعون عن الإسلام إلا من مستشرقين .

ولما عاد إلى الهند خدّم القضاء بمنصبه وتأليفه في القانون الإسلامي ، وخاصة في الأحوال الشخصية ، مستعملاً فيها مرونته العقلية ، متأثراً بمدرسته من أن له ولأمثاله الحق في الاجتهاد في الأحكام .

ثم قاد الحركة السياسية الإسلامية في الهند ، ودافع عنها ، ولقى في ذلك عناء شديداً ، وكان في كثير من الأحيان يُضطهد من المحافظين الإنجليز ، وإن كان يشجع من أحرارهم ، ويكره من الهندوكيين لاصطدامه معهم في إصلاح المسلمين ، ويخاصم من كثير من المسلمين أنفسهم لأنه متزوج إنجليزية ، ويتبع النمط الإنجليزي في معيشتة الخاصة .

ومع هذا سار في طريقه في الإصلاح والعمل ، يؤلف الجمعيات المختلفة لذلك ، ويقول في بعضها : « إن غرضه ترقية الشعور الطيب بين الهندود على اختلاف طبقاتهم وعقائدهم ، وفي الوقت عينه حماية مصالح المسلمين ، وتبصيرهم السياسي بشؤونهم » .

هذه هي الدعوة التي كان يدعو إليها دائماً ، يُسلم الهندوكيين والإنجليز ما سألوه وما حفظوا حقوق المسلمين ؛ فإذا تصدى أحد عليهم دافع في شدة وإخلاص ، فهو يقول في إحدى خطبه : « إن المسلمين في الهند لم حقوق سياسية واضحة أمام الحكومة وأمام الهندوكيين ، فإلى ما تُجَبُّ هذه المطالب أخشى

أن تنقلب مطالبهم إلى عصبية حادة . إن مطالبهم حقّة ، وهم لا يطلبون غير ما فيه العدالة ، إنهم يطلبون بتمثيلهم السياسى تمثيلاً يتفق وعددهم وأهميتهم وتاريخهم ، تمثيلاً عادلاً . إن المسلمين يابون أن يمتاز عليهم الهندوكيون فى أى حق من الحقوق السياسية ، فإذا سُوّى بين الجميع فالمسلمون يرحبون بالإصلاح .

واستعمل نفوذه وقلمه ولسانه فى إنهاض المسلمين لإدراكهم حقوقهم والمطالبة بها ، سواء منهم من كان فى الهند ، ومن كان فى إنجلترا . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى منازلته من أراد انتقاص حق المسلمين ، وكتاباتة الكثيرة القوية لساسة الإنجليز فى الهند ، وكبار ساستهم فى إنجلترا ، ورّده على الجرائد الإنجليزية كالتيمس والجازيت وغيرها . واستمر فى ذلك فى صراحة وجراحة حتى أبلغ يوماً على لسان صديق له « أن حكومة الهند فقدت ثقتها به » .

ونشطت سياسته أيضاً فى مناصرة الدولة العثمانية بعد خروجها من الحرب الماضية مهزومة ، فطالب بالإبقاء على كيائها ، وحرك الرأى العام المسلم فى الهند للعطف عليها والتأييد لها ، وكتب فى ذلك وخطب ؛ وله موقف لاذع فى جمعية من الجمعيات ، إذ اقترح خطيب أن تكون الآستانة مدينة حرة ، وتكون مركزاً لعصبة الأمم ؛ فرد عليه فى بديهة حاضرة بقوله : إن فلسطين أولى بذلك ، لأنها « مدينة السلام فى الأرض » والدعوة إلى الخير العام للناس ، منذ نحو ألفى عام .

وإلى جانب حياته العلمية والسياسية النشيطة كان نشاطه فى إصلاح الحياة الاجتماعية لمسلمى الهند ، وأهم ما التفت إليه من الإصلاح دعوته لإصلاح الأوقاف ، من مطالبته بالاستيلاء عليها من الحكومة ، وإصلاح وجوه الصّرف فيها وتنظيمها ، وقد لاقى فى ذلك عناء شديداً ؛ ثم دعوته إلى إصلاح المرأة وتعليمها ، وقد رأس المؤتمر الإسلامى الذى أسسه السيد أحمد خان فى بعض السنين

بعد وفاة السيد أحمد ، وكان مما دعا إليه فيه هاتان الدعوتان : قال في مؤتمر سنة ١٩٠٠ : « إن بالأوقاف وخيراتها انتشرت العلوم ، وتقدمت المعارف ، وأدت وظيفة نافعة في جميع الأقطار الإسلامية ، وكان لها نفع عظيم في البلاد الهندية ، ولكن تغيرت الأحوال وخرجت أوقاف كثيرة من يد المسلمين إلى أيدي الغير ، وتلاعبت بها الأيدي ... ولهذا أدعو المسلمين إلى السعي في هذا الموضوع ، طالباً من الحكومة أن تُعنى بمسألة الأوقاف وإحاطتها بما يحفظها ، فهي فخر المسلمين وحصنهم الحصين تُجاة الفقر والأيام العسيرة ... إلخ » .

وقال عن المرأة : « لقد أتى على المسلمين زمن كان النساء فيه يلتقن بأمهات الرجال » ، فهل يمكننا الآن أن نتعنه بهذه الصفة ؟ كلا ، إنهن آله في أيدي الرجال يوجهونهم كيف شاءوا — وإذا كنا نريد أن ترتفع في سلم المدنية والارتقاء وأردنا أن يحترمنا الناس ، فلا بد لنا من تربية بناتنا حتى يصلن إلى أن يكنَّ « أمهات رجال » — إني أعتقد أن تربية البنات يجب أن تسير جنباً إلى جنب مع تربية البنين ، لأننا إذا أهملنا النصف المكون لحياتنا الاجتماعية ساءت النتيجة ؛ إذ ينفر الجزء المتعلم من الجزء الجاهل ، ويبعد عن مصاحبته ومعاشرته ما استطاع ، ويحاول أن يسير في تيار لا يرضى الشرف ، أو ينحط بفكره ليعاشر ذلك الشريك المنحط في حياته .

ولذلك أرى من الضروري أن يسعى مسلمو الهند في تعليم بناتهم من هذا الوقت ، وأن يضعوا أمام أعينهم النموذج الذي يسرون عليه إلى الأمام » . إلخ . ومن أنبل أعماله الأخيرة ما كان منه أيام الحرب بين إيطاليا وتركيا والعرب في طرابلس ، فقد علم أن جمعية الصليب الأحمر تُعنى أكثر ما تُعنى بالجرحى من المسيحيين ، وليس من يقوم بجرحى المسلمين ، فسعى لتأليف جمعية تجمع المال من الخيرين وتنظم وحدات علاجية لجرحى العرب والترك ، واستمر يكافح في هذا

العمل سنين ، وعندما سأله المُشْرِف على فِرَق العلاج : هل وظيفته فقط أن يُعْنَى بِجَرْحَى المسلمين ؟ قال له : « إن وظيفتك الأولى أن تُعْنَى بِجَرْحَى العرب والترك ، ولكن هذا لا يمنعك أن تمدّ يد المعونة لجرحى النصارى واليهود في ساعات الضيق والحرج » .

وهكذا كان عمله وعمل جمعيته في مساعدة الجرحى والبائسين في حرب البلقان وفي الحرب العظمى الماضية .



لقد كان أهم ما يمتاز به السيد أمير على « الإخلاص للعقيدة » ، عقيدته في دينه ، وعقيدته في قومه ، وعقيدته في وطنه . ورأى أن مواهبه في لسانه وفي قلبه ، فصقلهما صَقْلًا بلغ بهما الغاية ، فهو في لسانه خطيب بارع ، وفي قلبه بليغ ساحر ؛ فلما أن بلغ بهما هذا المبلغ وضعهما في خدمة عقيدته ، يكتب عن الإسلام وعن محمد فتصل كتابته إلى كثير من الأوربيين الذين لم يسمعوأ عن الإسلام ومحمد إلا التسافه من القول ، وتصل إلى مواطنيه فَيَرَوْنَ معلومات مألوفة قد عُرِضَتْ عَرَضًا جديدًا حتى كأنها جديدة ، ويوم وصل إليهم كتابه عن « محمد » وقفوا الدراسة في المدارس يوماً احتفالاً بهذا الكتاب واعترافاً بحسن أثره .

ثم يستعمل لسانه وقلبه في خدمة قومه من المسلمين فيحركهم ويجمع شملهم ويدفعهم لمطالبة حقوقهم ، فيفقد بذلك كثيراً من المال كان يصح أن ينهال عليه ، ومن ألقاب الشرف كان يمكن أن ينالها بمركره ومواهبه وجاهه ، ولكنه كان راضياً بما في يده مع راحة ضميره ، وكارهاً طعمَ الفنى والألقاب مع عصيان الضمير ، وهو من تأليفه ودفاعه وإصلاحه وثمرة عمله في غنى وشرف لا يساويهما أى غنى أو شرف .

لقد تقدم إلى قبره يوم مات كثير من أصدقائه من الأوربيين والمواطنين

يحملون أكاليل الزهر ، من بينها إكليل من جمية كان يرعاها شَبَكْتُ به بطاقة
كان مكتوباً فيها :

« بمجهود هذا الرائد كم طَمِمَ جائع ، وكَسَى عار ، وصَحَّ مريض ؛ وبفعاله
كم اطمأن شارد ، وضمت أمٌ طفلها إلى صدرها لولاه لهلك ، ووجد الفلاح اليأس
الذي خَرَّبت الحرب أرضه ما أعاد إليه أمله ، وأسعفه بالمال يهد أرضه وَيَبْذُرُ
بذره ويستعيد بذلك رزقه » .

ولو استطعنا إكمال البطاقة لقلنا : « وبقلمه ولسانه كم حَيَّيتُ نفوس ، وتنهت
عقول ، واهتدى ضال ، وأصلح فاسد ، واستقام معوج ، واسترَدَّتْ للمسلمين
حقوق ، وتعلمت بنات سَعِدَ بهن أزواج ، وسُعِدَتْ بأبنائهن الأمة »